حوار ألماني مع "نهاية التاريخ" (*)

هيجل ونيتشه والإنسان الأخير

ـ شبيغل: السيد فوكوياما، ذكرتم في محاضرتكم الشهيرة عام ١٩٨٩ ـ التي وسعتموها الآن إلى كتاب ـ فرضيَّة مؤدّاها أن الديموقراطية الليبرالية ـ بعد انهيار الشيوعية ـ ـ هي النقطة النهائية للثورة الإيديولوجية الإنسانية. إننا نقف الآن بالتأكيد في نهايات الحرب الباردة. لكن ليس في «نهاية التاريخ». إننا نبدأ بالأحرى فصلاً جديداً من فصول التاريخ!

* فوكوياما: ما تقصدونه صحيح بمعنى من المعاني. بل إنه في بعض كلمات غورباتشوف وبوش قيل أحياناً: في الحقيقة يبدأ الآن التاريخ. لكن الذي يتحدث عن التاريخ بهذا المعنى يقصد الأحداث الكبيرة. أما أنا فأستخدم مفرد «التاريخ» بشكل مختلف تماماً.

ـ شبيغل: كيف؟

* فوكوياما: أعني بالتاريخ ما قصده هيجل أو ماركس، أي خطوات التطور الشاملة للمجتمعات البشرية، من الثقافات الزراعية، إلى الملكيات وحتى الديموقراطية الليبرالية، وليس بالضرورة أن يحدث ذلك في خط مستقيم،

(*) هذه ترجمة لحوار أجرته مع فرانسيس فوكوياما مجلة شبيغل Der Spiegel الألمانية عدد ١٥/السنة ٤٦/٦ إبريل ١٩٩٢.

لكنه على أي حال ليس دائرياً. فهناك توجه إلى هدف. وهذا الهدف «الديموقراطية الليبرالية» قد تحقق في خطوطه الأساسية.

ـ شبيغل: ما الذي يجعلك متيقناً هكذا، ألا يمكن أن تحدث انقطاعات أو تراجعات في هذه المسيرة التي تبدو بدون عقبات جدية الآن؟

* فوكوياما: طبعاً يمكن أن تحدث تراجعات. ففي روسيا مثلاً لا نعرف إن كان للديموقراطية الحالية مستقبل. ولست عرّافاً لكي أزعم أن المسيرة ماضية قدماً إلى الأمام دونما تردد.

ـ شبيغل: لكنكم في كتابكم الجديد تتحدثون عن «مسار هادف للتاريخ الإنساني»، الذي «سيقود في النهاية أكثر البشر إلى الديموقراطية الليبرالية». ويعني هذا أن المسيرة تمضي قدماً. ويذكّرنا هذا الفهم بماركس بشكل قوي، الذي سبق أن رأى أن التاريخ سيقودنا إلى فردوس من التآخي الإنساني.

* فوكوياما: قبل وقت قصير نعتني أحدهم في باريس بالماركسي الأخير أو آخر الماركسيين! ورؤيتي التاريخية في الحقيقة تشبه الرؤية الماركسية. لكنني مختلف عن ماركس اختلافاً كبيراً في قضية التغير في التاريخ، إذ لا أذهب مثله إلى الميكانيكية الاقتصادية.

ـ شبيغل: لكن أليست الحاجات المادية هي العوامل القوية الدافعة في التاريخ؟

* فوكوياما: لا! ففي أهمية العامل المادي، سعي الإنسان الملحّ للاعتراف، واثبات الوجود. وهذه العملية تجري بطريقة غير اقتصادية. ففيها لا يفكر المرء بداية بأرباحه المادية. إنه يريد الاثبات فقط. وهذا كل شيء. فماركس أكّد على اللون الخطأ من ألوان الغائيّة التاريخية. أما هيجل فقد رأى التقدم في التاريخ بشكل أوضح. تحدث هيجل عن الكفاح العقلاني من أجل اثبات الوجود. ورأى أن القومية تشكل الجانب اللاّعقلاني من أجل اثبات الوجود. ولقد رأى أن القومية تشكل الجانب اللاعقلاني من ذلك الكفاح. ولم

ينكر هيغل أهمية السعي نحو الرفاه المادي، لكنه وضع التقدم في الوعي في المقدمة. ولذا أرجع إلى هيجل وأستند إليه وليس إلى ماركس.

ـ شبيغل: اعتبر هيجل نظامه الفلسفي ذروة وخاتمة الأنظمة المعرفية. ورأى أنه بذاك النظام حصل الإنسان على المعرفة اليقينية النهائية، أو بعبارته هو، حققت الروح وعيها بحريتها! ونهاية التاريخ هذه هي أيضاً نهاية فلسفة التاريخ: أي إن كل الأساسي والمهم قد قيل! فلماذا نحتاج الآن إلى كتابكم الواقع في خمسمائة صفحة عن «نهاية التاريخ»؟

* فوكوياما: لست ذلك الهيجلي المؤمن بالتأكيد، لكن عللاً كثيرة لضرورات الديموقراطية، والضرورات الإنسانية للوصول إليها، أدركها هيجل وذكرها فعلاً.

ـ شبيغل: هيجل إذن بالنسبة لك نقطة بداية أو منطلق. . . ؟

* فوكوياما. . . وهو مجال استرشاد أيضاً. لكن بعد ذلك مباشرة تأتي الوقائع.

ـ شبيغل: ومن هذه الوقائع أدركتم أن صراعات الأنظمة الايديولوجية قد انتهت. اليست هذه النتيجة منحوتة خشبية غير متقنة؟

* فوكوياما: أرى أن الاتجاه العام يشير إلى ذلك. فخلال آلاف السنين تصارعت مختلف التشكيلات الاجتماعية وتنافست. وسقط في ذلك الصراع هذا الشكل أو ذاك، أي أنه خرج من التاريخ لعوامل تناقض داخلية. وآخر الأمثلة على ذلك الاشتراكية باقتصادها المخطط. وليس بين أيدينا الآن إلّا الديموقراطية التحررية بمثالها السياسي المعروف. ولذا أتحدث عن نهاية التاريخ.

ـ شبيغل: النهاية النهائية للتاريخ؟ أم أن فرضيَّتكم لا تنطبق على غير العالم الغربي وربما اليابان؟

* فوكوياما: أفرِّق في كتابي بين الدول التي ما تزال في «مسار التاريخ» وتلك التي بلغت نهاياته. وهذا مثل القطار، تصل عربته الأولى، وتكون عرباته

الأخرى ما تزال سائرة تحتاج إلى وقت للوصول والاستقرار. لكن عربات القطار مترابطة، ولذا ستصل حتماً إلى موطن الاستقرار ذاته. وأزعم أنا أن موطن الاستقرار والهدف المقصود هو الديموقراطية الغربية.

ـ شبيغل: يتألّق العصر الذهبي هذا بحيث يكون كل إنسان حراً وسعيداً؟ هيجل كان أكثر تشكّكاً، فقد قال في كتابه: «فلسفة التاريخ»: إن التاريخ ليس موطن السعادة. بل إن أفق السعادة أوراق بيضاء في التاريخ.

* فوكوياما: هل نهاية التاريخ أمر جيد أم لا، أنا لا أعرف أيضاً. كل ما أقوله، إنها ستأتي! إنها هنا! أما مسألة أن حياة البشر ستصبح فعلاً أفضل بالتقدم العلمي، وأسعد بالديموقراطية؛ فهذه أمور لا تتعلق بالمسار التاريخي.

ـ شبيغل: ألا تجعل الانتصارات من المنتصرين بلهاء وكسالى؟ وإذا كان ذلك صحيحاً، ألا ينطبق هذا على المنتصرين في التاريخ أيضاً؟

* فوكوياما: هذا صحيح. وربما أضرّ بالديموقراطية انتصارها الكبير والنهائي. فلو قلنا إن الديموقراطية ستجلب السلام والنمو مثلما وعدت وتعِد ـ ولكن ماذا بعد ذلك؟ إن هذا يعني انتفاء المجازفة. وهذا يناقض طبيعتنا. فالإنسان يحتاج إلى المغامرة. وقد يعمد إلى إثارة حروب جديدة.

ـ شبيغل: . . . من أجل المغامرة فقط؟

* فوكوياما: نعم من أجل الخروج من الملل! لقد رأى نيتشه هذا الخطر. ففي كتابه عن «زرادشت» هناك فقرة عن «الإنسان الأخير» الخالي من العواطف ومن الأحكام المسبقة، والذي لا يُقدم على مجازفة حقيقية. وهو يتحول بذلك إلى وحدة من قطيع ساكن وخائف، إلى حيوان استهلاكي. والوصول إلى هذه الحالة يدفع من جديد باتجاه الاشتياق للقوة والعظمة. وحتى لو لم نمض مع نيتشه إلى نتائجه الأخيرة المتطرفة، نستطيع القول إن الديموقراطية السواسية ستدفع عندما تبلغ حدودها القصوى إلى ذلك الحنين من جديد نحو العظمة.

فالبشر يريدون أموراً أكثر من العضوية في مجتمع ديموقراطي تسووي عالمي مُـرفّه واستهلاكي.

ـ شبيغل: لكن أليست هذه الثنائية «الميتافيزيقيـة» عند هيجـل ونيتشه بـين «مـزاج الانتصـار» و«القـرف من مجتمـع المسـاواة» تشـاؤميـة لا عقـلانيـة؟ إنهما يسجنان «العقل المتألّه» والإنسان ذا الغرائز في قفص، ثم يأملان أن تنشأ بينهما علائق ود ورحمة وتساكن وسكونية؟

* فوكوياما: لا! فأنا لا أرمي من وراء ما قلته للربط بـين هيجل ونيتشـه. جلّ ما أريـده القول إن الـرؤية السـوداء لنيتشه هي البـديل الـوحيد لعقـلانية هيجل الباردة. إن من يشـارك هيجل في إيمـانه، وانتصـار الديمـوقراطيـة، عليه أيضاً أن يعترف بوجود أخطاء، وليس هناك أحد أكثر، إصابة في نقد هيجل من نيتشه؛ ولذا علينا أن لا نتجاهل إنذاره لنا من الملل الكوني والتشاؤم التاريخي.

ـ شبيغـل: هل لانحيـازكم إلى جانب تفـاؤليَّـة هيجـل التـاريخيـة عـلاقـة بوضعكم كمستشار للحكـومة الأمـيركية؟ أي هـل تريـدون من وراء تفاؤليَّتكم بعث الشجاعة في المسؤولين الأميركيين من أجل تجاوز الأزمة الحالية؟.

* فـوكويـاما: ليست الأزمـة الحاليـة من العمق بالـدرجة التي تبـدو عليها الآن. الصحيح أن عندنا جموداً اقتصادياً، والجمود والكساد ينالان هذه المرة من الموظفين أكثر مما ينالان من العمال. لكن، إذا نظرنا إلى الأمور في المدى الـطويل فإن هذه الظواهر الآنيَّة موجات سطحية لا عمق لها. فليس هناك خبير اقتصـاد محترم عندنا قال إننا أمام انهيار لا مردّ له.

ـ شبيغل: لا يمكنكم الإنكار أن الاقتصاد الأميركي يعاني مشكلات بنيـويّة كبيرة.

* فوكوياما: طبعاً لا. وهذا هو السؤال الكبير الموجَّه إلينا بعد نهاية الحرب الباردة: كيف نستطيـع من جديـد تطويـر قدرة تنـافسية معتـبرة؟ فالبنـاء التقني التربوي متروك عندنا إلى حد كبـير بيد اقتصـاديات السـوق. والحقيقة أن البنـاء

والتدريب كانا دائماً من مهام الدولة. إن علينا أن نتعلم بعض الشيء في هذا المجال من الألمان. ففي الولايات المتحدة تمضي نسبة أكبر من الشبان إلى الجامعات، لكننا لا نملك كوادر تقنية مدرَّبة وكافية. وقد حلَّت ألمانيا المشكلة بطريقة أفضل.

ـ شبيغل: واليابان؟

* فوكوياما: الحلول اليابانية لا تناسب الولايات المتحدة. مع أن الأميركيين الآن شديدو الإعجاب باليابان، ويقلّدونها في أشياء كثيرة. وفي السابق كان الأمر معكوساً.

ـ شبيغل: هل تتلاءم الديموقراطية اليابانية بتقاليدها السلطوية الخاصة مع النمط الغربي للديموقراطية، الذي تعتبرونه النمط النهائي؟

* فوكوياما: من ناحية الشكل ما يزال التلاؤم ظاهراً. لكن هناك في الحقيقة إشارات وأمائر لنمط آسيوي خاص. ففي تايوان وسنغافورة مثلاً ظهرت اقتصاديات السوق بدون ديموقراطية، ، بل بشخصية أبويَّة على رأس النظام، أي ديكتاتور رؤوف. اما الصين فنموذج متفرِّد. فثورة الطلاب في ساحة تيانتمان (السلام السماوي) كانت مثل الثورة الروسية عام ١٩٠٥. وستكون في الصين ثورة تشبه ثورة أكتوبر الروسية، لكنها ستكون ديموقراطية، وطبعاً بعد فناء الزعماء القدامى للحزب الشيوعي هناك. لكن هناك حساسية أخرى لا بد من التنبّه إليها. فلي كوان يو الزعيم السنغافوري السابق قال مراراً إن «النظام السلطوي» يتوافق أكثر مع طبيعة الكونفوشيوسية، ثم إنه من الناحية الاقتصادية أقوى وأبقى. ويبدو أنه لم يُجانب الصواب كثيراً في زعمه ذاك.

ـ شبيغل: على فرض صحة مقولة لي كوان يو، كيف يتلاءم ذلك مع فردوسكم المستقبلي الذي حضر زمنه الآن، والذي يرى تلازماً بين اقتصاديات السوق والديموقراطية؟!.

* فوكوياما: ربما لن يكون هناك تلاؤم. الأمر مفتوح. ما أراه أن

الإيديولوجيا الآسيوية، التي تحد من حرية المواطنين، وتجلب لهم النمو والرفاه في الوقت نفسه، تُثبت أنه لا تلازم هناك بين حرية الأسواق وحريات المواطنين. ومراقبة وتتبّع نمط شرق آسيا هذا أكثر حيوية من مراقبة انهيار نظام شرق أوروبا. فقد يكون ما يحدث في شرق آسيا سبيلاً فرعياً لمسار التاريخ.

ـ شبيغل: يعتبر تدبير البيئة في العالم الآن الهم الرئيسي للبشرية. لكنه لا يلعب دوراً ملحوظاً في رؤيتكم الشاملة. فصورتكم لعالم ما بعد التاريخ تتعامل مع الاقتصاد والتقنيّة مثل السابق ـ الديموقراطية بطيئة في اتخاذ قراراتها».

* فوكوياما: هذا غير دقيق. لنأخذ على سبيل المثال مسألة ثقب الأوزون. فأنا أرى أن الغرب وصناعييه تعرفوا بسرعة نسبياً فيما يتصل بالمسألة مقارنة مع دكتاتوريي العالم الشيوعي السابقين، أو استبداديي الدول الإسلامية. ففي بلد لا يستطيع المواطنون فيه أن يتظاهروا ضد بناء مفاعل نووي أو مصنع كيماوي، يمكن أن تحدث يومياً كوارث مثل كارثة تشرنوبيل.

ـ شبيغل: لقد كتبتم أن البشرية تحتاج إلى نمو اقتصادي مستمر، إلى أين يمكن أن يتجه هذا النمو بعد؟

* فوكوياما: إن النمو يمكن أن يكون نوعياً وليس كمياً فقط. فلقد أخطأت كل التوقعات التي رأت أن النمو سيتوقف؛ من مالتوس وإلى نادي روما، فالتقنية تتطور باستمرار؛ وهذا شكل من أشكال النمو.

ـ شبيغل: ألم تصل أزمة البيئة إلى الحدود التي ينبغي عندها التفكير في الحد من الحريات الديموقراطية؟

* فوكوياما: هذه الفكرة الغريبة لم أسمعها إلا في المانيا. ففي برلين تحدثت مرة مع واحد من «الخضر» فقال في المناقشة: الحقيقة بدلاً من الأكثرية! وهذه فكرة لا تخطر على بال أشد أنصار حماية البيئة حماساً في الولايات المتحدة؛ فالألمان قليلو الثقة بالديموقراطية وقدراتها وإمكانياتها. بدون الصناعة ينهار الاقتصاد العالمي . . .

ـ شبيغل: . . . وبالصناعة نستمر في تدمير البيئة، وفي النهاية الاقتصاد العالمي أيضاً.

* فوكوياما: هناك الرغبة في النمو الاقتصادي المستمر. وهناك الرغبة في بيئة سليمة وصحية. وفي الدولة الديموقراطية، يمكن للمواطنين النقديين، أن يضغطوا وأن يحصلوا على استجابة. فالدولة وحدها هي القادرة على تحمل الإنفاق على تحسين البيئة، وعلى وضع الأمور في نصابها بعدل وتخطيط. وقوانين حماية البيئة هي المثل الأوضح على صحة رؤيتي بأن الديموقراطية تكون أكثر فعّالية في المجتمعات التي يسودها اقتصاد السوق. إنها أكثر أشكال الحكم ملاءمة.

ـ شبيغل: لكنها هي أيضاً تلك النزعة في الرضا التاريخي عن النفس، التي تُغري بسلوك غير مسؤول تجاه الطبيعة.

* فوكوياما: غير صحيح. إن علينا واجبات مهمة تجاه عالمنا الطبيعي. لكن علينا الواجبات نفسها تجاه عالمنا الفكري والروحي. فلا أحد في البلدان الغربية يعترض على الديموقراطية، لكن لم يعد هناك يقين حول هذه المسألة المهمة. أما الفلاسفة فيقولون إنها جزء من التطور الثقافي للغرب، أي أنها شيء من طبيعة الأشياء. وهذا محزن، وعلينا أن نتذكر دائماً أن الغرب وحده وصل إلى هذا القدر من التسامح والتعدّديّة، وهما الأمران اللذان نعتبرهما الآن من البديهيات.

ـ شبيغل: هل تجدون أنه مشروع من ضمن التعدّدية الثقافية الغربية التطلّع إلى مثاليات ثقافية أخرى غير تلك المعروفة في الغرب؟

* فوكوياما: لست مستعداً للترحيب بتعدديّة تتهدد القائم والمستقر. فعندما يصر كلٌّ على الانتماء المغاير بحجة الديموقراطية والتعددية، يضيع جوهر الاجتماع المشترك. إن الإشكالية التي على كل منا النفاذ إلى أعماقها أن الديموقراطية لا تقوم فقط على العقل والتعقل والعقلانية. فهناك عوامل وقيم غير عقلانية تلعب دوراً مهماً. علينا أن لا ننسى أن مؤسسي أميركا كانوا

مهاجرين متدينين ورعين. وتدينهم عامل مهم في حِسِّهم الاجتماعي، وشعورهم بالواجب، ومثالياتهم الأسرية.

ـ شبيغل: هكذا تحتاج دولتك الباقية بعد نهاية التاريخ إلى دين واحد وشامل يرضي حاجة الناس إلى اللاعقلي؟!

* فوكوياما: لا! لكنني متخوِّف من تضاؤل وانكماش الأساس الديني للاجتماع الغربي. نِسب الطلاق المرتفعة، وانعدام الإحساس بالمسؤولية، والعنف... إلخ كل تلك ظواهر مهدِّدة. فالدين رابطة شديدة الأهمية للمجتمع، لكن على الدين أن يقبل الانضواء في الديموقراطية.

ـ شبيغل: عندما يتأمل الدارس للتاريخ كثيراً، ألا يريد هو أيضاً المشاركة في صنعه؟ هل عندكم مطامح سياسية؟

* فوكوياما: بالكاد! سأشعر برضا كبير في منصب جامعي. أما في السياسة فلا أعتقد أنني أملك الاستعدادات الضرورية. الرئيس الأسبق نيكسون قال مرة: إن العامل في السياسة اليوم في الولايات المتحدة لا يرغب في العمل غداً؛ وذلك لما يتطلبه من جهد رهيب، وخصال رهيبة! إن عليه إن يكون شديد الطموح، وشديد الأنانية. وهذه مشكلة من مشكلات ديموقراطيتنا.